كتابك

١٢٨

محمد قنديل البقلى

فنون الزجل

دار المعارف

هذا الكتاب

• يقدم المؤلف عرضا موجزاً لفنون الزجل المختلفة ، وظروف نشأتها ونموها فنوناً مستقلة عن فن الشعر .

كما يقدم فكرة سريعة عن تلك الظواهر التى كانت بمثابة خروج على الشعر ، لكنها تمثل حلقة وسطى بين فنى الشعر والزجل .

٤٥١٤٨١/١

جـ ١٠

كتابك ١٢٨

رئيس التحرير أنيس منصور

محمد قنديل البقلي

فنون الزجل

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة

ما من شك فى أن أول خروج على الشعر العربى صياغة ووزناً كانت تلك الفنون التى كان فيها لون الشعر ورائحته وطعمه وهى :

الموشحات ، والمواليا ، والدوبيت ، والكان كان ، والقوما .

وكانت هذه كلها أقرب صلة بالشعر إلى أن انسابت الألسن من عقال الشعر انسياباً بعيداً ، وتحللت من اللغة تحللاً واسعاً ، فكانت نشأة الزجل .

وأحب قبل أن أدخل بك إلى موضوع الزجل أن أمهد بعرض فكرة سريعة عن تلك الظواهر التى كانت بمثابة خروج على الشعر والتى سبقت خرجة الزجل ، والتى كانت حلقة وسطى بين الشعر مبنى ومعنى ، وبين الزجل بعاميته وابتداعاته الوزنية .

محمد قنديل البقلى

الموشحات

الموشح من الفعل وشح ، ووشحه فى اللغة أى ألبسه الوشاح ، وتوشح واتشح : لبس الوشاح . والوشاح : شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها . والموشحة من الطير أو الظباء : التى كانت لها طرتان مسبلتان من جانبيها . والموشح هو ضرب من الشعر ينظم على المقاطيع وقواف معلومة . بحيث لايتقيد فيه الناظم بقافية واحدة .

ونشأة الموشحات فيما يذكر المؤرخون مختلف فيها ، فمن قائل إنها نشأت فى المشرق ، ومن قائل إنها نشأت فى الأندلس . وعلى أية حال كان ازدهارها فى الأندلس ، وأقبل الناس عليها إقبالا كبيراً . ويقول فى ذلك ابن خلدون : «وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنًّا منه سموه بالموشح » ، وشاع هذا الفن عند الأندلسيين وأحبوه لسهولة تناوله وقرب طريقه .

ومن أقدم الموشحين فى الأندلس مقدم بن معافر الفريرى ، ثم تبعه ابن عبد ربه ، كما يقولون وهو صاحب كتاب العقد الفريد .

ولكن المؤرخين للأدب يضيفون أن أول موشحات سارت فى الناس

وتناقلها الرواة إعجاباً بها هى موشحات عبادة القزاز الذى أظله عصر ملوك الطوائف ، وكان شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية . ويقول فيه أبو بكر بن زهر الوشاح المعروف ، والذى سنعرض له بعد قليل «كل الموشحين عيال على عبادة القزاز» ولعلنا جميعا نذكر له قوله من موشحته :

بدر تم شمس ضحى   غصن نقا مسك شم
ماأتم ماأوضحا   ماأورقا ماأتم
لاجرم من لمحا   قد عشقا قد حرم

ثم جاء بعد عبادة القزاز موشح قد يكون مجهول الاسم غير أنه على هذا كان غاية فى الأبداع ، وهو ابن أرفع رأسه ، شاعر المأمون بن ذى النون ، صاحب طليطلة . ومن موشحاته المأثورة موشحته التى يمدح فيها المأمون حيث يقول :

العود قد ترنم   بأبدع تلحين
وسقت المذاهب   رياض البساتين

وفى هذه الموشحة يقول ابن أرفع رأسه :

تخطر ولاتسلم   عساك المأمون
مروع الكتائب   يحيى بن ذى النون

فلما أن كانت دولة الملثمين بالأندلس انصرفت همم الناس إلى الموشحين وبلغت الموشحات أقصى ماتبلغ رقة وحسن سبك ، وكان زعيم

الموشحين فى دولة الملثمين الأعمى الطليطى ، ونحن مازلنا نذكر له موشحته المشهورة التى يقول فى أولها :

كيف السبيل إلى صبرى وفى المعالم أشجان
والركب فى وسط الفلا بالخرد النواعم قد بان

ثم لاننسى موشحته الرائعة التى يقول فيها :

ضاحك من جمان سافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى
إذا أتى فى الصباح أو فى الأصيل
أضحى يقول
ما للشمول لطمت خدى
وللشمال
هبت فمال لى غصن اعتدال
ضمه بردى
مما أباد القلوب يمشى لنا مستريبا
يالحظة رد نوبا
ويالماه الشنيبا برد غليل
صب عليل
لايستحيل فيه عن عهدى
ولايزال

في كل حال يرجو الوصال
وهو في الصد

وهو القائل :

حلو المجاني ماضرّه لو اجناني
كما عناني شغلي به وعنّاني
حب الجمالِ فرضٌ على كل حر
وفى الدلالِ عذر لخلاّع العذر
هل فى الوصال عون على طول الهجر
أو فى التداني شيء يفي بأشجاني
وفى ضماني أن ينتهى من يلحاني

ثم جاءت بعد هذا دولة الموحدين وكان من رجالها أبو بكر محمد بن زهر الأشبيلى ، ويكنى بالحفيد ابن زهر ، وكان طبيباً ، وتوفى عام ٥٩٥ هـ ، وقد سبق أن قدمنا له شهادته فى عبادة القزاز ، وكان أبو بكر فى ظل هذه الدولة – أى دولة الموحدين – يجلس للوشّاحين يحكم بينهم ، إذ كان قد بلغ فى هذا المضمار شوطاً بعيداً ، وحسبه دليلاً على نبوغه وإبداعه ، تلك الموشحة التى يقول فيها :

ماللمولّه من سكره لايفيق يا له سكران
من غير خمر ماللكئيب المشوق يندب الأوطان
هل تستعاد أيامنا بالخليج ولـيـالـيـنـا

أو نستفاد من النسيم الأريج مسلك دارينا
أو هل يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
وشجر ظله دوح عليه أنيق مورق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

ولقد كان من موشحى هذه الدولة – دولة الموحدين – موشح ناشئ عاصر أبا بكر بن زهر، هو أبو الحسن بن مالك، وله تلك الموشحة التى أنشدها ابن زهر كعادة الموشحين آن ذاك، كما قلت، والتى يقول فيها :

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر
على الصباح
ومعصم كالنهر فى حلل خضر
من البطاح

وحين سمع هذا ابن زهر من الحسن بن مالك أعجب به، وكان لايعرفه لكبر سنه، ولما سأله عمن يكون انتسب له ابن مالك فعرفه ابن زهر.

وقريباً من عهد هذين الموشحين أبى بكر بن زهر وأبى الحسن بن مالك ظهرت جماعة من الموشحين منهم ابن بهردوس وهو صاحب الموشحة التى يقول فيها :

ياليلة الوصل والسعود بالله عودى

وابن موهل وكان فحلا من فحول الموشحين، ومن موشحاته :

مالعيد فى حلة وطاق وشم وطيب
وإنما العيد فى التلاقى مع الحبيب

ثم المهر بن الفرَس من أهل غرناطة وقد شاعت موشحاته فى الآفاق ، ومن تلك الموشحات التى كانت على ألسنة الرواة :

لله ماكان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك المروج
ثم انعطفنا على فم الخليج ففض مسك الختام
عن عسجد والمدام ورد الأصيل يطويه كفر الظلام

ومن موشحى غرناطة أيضاً أبو الحسن سهل بن مالك ، البديع النظم ، الذى يقول من موشحة له :

إن سيل الصباح فى الشرق عاد بحراً بأجمع الأفق
فتداعت نوادب الورق أترى خافت من الغرق
فبكت سحرة على الورق

ومنهم أيضاً ابن جرمون وكان من مرسية وهو الذى يقول :

ياهاجرى هل إلى الوصال منك سبيل
أو هل ترى عن هواك سالى قلب العليل

ثم أبو بكر بن الصابونى ، وكان من أرق الوشاحين ، وهاك نموذجاً من رقيق موشحاته :

قسماً بالهوى لذى حجر ماللیل المشوق من فجر

خمد الصبح ليس يطرد   فما لليلى فيما أظن غد
صح ياليل إنك الأبد   أو قطعت قوادم النسر
فنجوم السماء لاترى

وله أيضاً :

ماحال صب ذى ضنى واكتئاب   أمرضه ياويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب   ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفونى النوم لكننى   لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرّنى   كما شاء وساء الوصال
فلست باللائم من صدّنى   بصورة الحق ولو بالمثال

ولقد كان لأشبيلية هى الأخرى حظ كبير من الموشحين نذكر منهم فى ذالك العهد أبا الحسن بن الفضل ، وله موشحته الخالدة والتى يقول فيها :

واحسرة لزمان مضى   عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى   وبت على جمرات الغضى
أعانق بالفكر تلك الطلول   وألثم بالوهم تلك الرسوم

وأخيراً ظهر الوشّاح المعروف الوزير أبو عبد الله بن الخطيب الذى بزّ بفنه فنون من سبقه ، وكلنا يذكر موشحته المشهورة التى جارى فيها أبا الحسن ابن سهل شاعر أشبيلية :

هل درى ظبي الحما أن قد حمى   قلب صبّ حلّه عن مكنس

فهو فى نار وضيق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

ومن الموشحات التى سارت فى الأندلس ، وكان لها نصيب فى التلحين والغناء :

مـالـعـينى أبصرت أرضنا قد أقفرت
وغدا الظبى بعيد وبكـائى لايـفـيـد
عـاملتنى بـالجفـا وهى لاتدرى الوفا

والموشحة :

نزهة الأرواح بدرى قدُّهُ بالغصن يُزرى
من سنا عينيه سحرى آه لو يقبلُ عذرى
ليته بالحال يدرى
جاءنى اليوم صباحا فملا قلبى ارتياحا
وبسرّ اللحظ باحا مُبديا منه انشراحا
بابتسام مثل زهر

والموشحة :

نسيم غرناطه عليل لكنه يبرئ العليل
وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل
سقى بنجد رُبى المصلى مباكرا روضه الغمام
فجفنه كلما استهلا يبتسم الزهر فى الكمام
والروض بالحسن قد تجلى وجرد النهر عن حسام

ودوحها ظله ظليل — يحسن فى ربعه المقيل
والبرق والجو مستطيل — يلعب بالصارم الصقيل

والموشحة :

نبه الدمان صاح — إن داعى الأنس صاح
حيث من أيدى الملاح — لاح نجم السعد لاح
وعيون الورد تسجم — دمعها فوق البطاح
وثغور الزهر تبسم — عن لآل وأقاح
كوكب للحسن دارا — فمحا شمس النهار
ضوء خديه أنارا — منه لى نور ونار
ياكليم العشق كلم — إن باقى العمر راح
والهوى العذرى علّم — أهله خلع العذار

والموشحة :

خلعت عليّ يدُ النوى خلعَ الضنى — فبكى المشوق المستهام من العنا
غلبَ الصدودُ على وصال مهفهف — وجد القلوب خلية فتمكنا
قد غرد القمرى وصاح — ثم قال يا عاشقين
هذا زمان الانشراح — قوموا بنا يا نائمين
انتبه يا صاح — مع الندمان — وقم ترى
حين زخرف الورد — والسوسن — والماء جرى
والندى حَبَبْ — على الأغصان — جوهراً

ونسيم الروض فاح بالحبق والياسمين
هذا زمان الانشراح قوموا بنا ياناعمين
تذكاركم عندى من جملة الماء والطعام
أحلى من الشهد ألذ من شرب المدام
لاتقطعوا عهدى ياسادتى أهل الذمام
أسهرتمو جفنى هذى دموعى سايله
لاشك من عينى أصل السبب والفاصله
يقول لك زمان الأزهار الدنيا مليحهْ
واجلس مابين الأطيار فى جلسة فسيحهْ
واسمع لغاتْ الأطيار بغُنّه • فصيحه
ياساقى دوّر الكاس واسق حبيبى
على غيظ الحسود والرقيب املا ياطبيبى
بدا الربيع خرجت نتفرج
شكله بديع والزهر يتمرج
ارهن وبيع وخليها تتنسج
وتلك الأغصان تميل وتتعانق
الدنيا سلوى اسكر وِتهْ واعشق
ياقلبى تصبر وتثبّت يقينك
كل شىء مقدّر مكتوب فى جبينك

بالمقصود تظفر المولى يعينك
عذّبني هواهم وكوى قلبي كيا
قلبي ما سلاهم ولا هانوا عليا
إلى حبيبي نترك أوطاني عسى يراني
ليلى عن العهد القديم تغيّرت والنفس من فرط النحيب تكدّرت
والعين من فرط المجامع أمطرت
ووفت وجفت وبكت كما الصبيب
ولغت وطغت قطعت منها نصيبي
قلب الكئيب أليفه تذكارُه طيب النسيم غنى على أطياره

على أى حال ظهر الموشح فى الأندلس ، لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص وإنشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس ، فوجدوا ذلك أدعى إلى تحريك النفوس ، فابتدءوا أولاً بالأوزان العربية الخفيفة المعروفة كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ، وغيّروا فيها القافية وولّدوا من ذلك الموشحات ، وأباحوا لأنفسهم التغيير فى الوزن والقافية فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له ، ثم توسعوا فى هذه الأوزان ، وتفننوا فيها وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم ، واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى ، ثم تمشى فى

نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعاً من أنواع الشعر العام ، فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم .

ولما كان الموشح قد صادف هوى العامة وعبر عن نفسيتهم وتمشى مع حياتهم العقلية فقد تفننوا فيه وعددوا أوزانه ، وقد رأيت كيف كان ازدهار هذا الفن فى الأندلس ، ثم كتب له بعد ازدهاره فى هذه البلاد أن يتسرب إلى المشرق ، وهذا لايعنى أن المشرق كان لايعرف الموشحات من قبل ، بل نعنى أنها لم يكن لها ازدهار فى الأندلس بل ولدت فى المشرق شبه ميتة ، ثم لما كان هذا الازدهار فى الأندلس وشاعت وذاعت بدأ المشارقة يلقون بالاً لهذا الفن .

وكان محيي الدين بن العربى وهو أندلسى الأصل قدم إلى المشرق عام ٥٩٨ هـ ، واستوطن دمشق ، وأقام فيها حتى توفى عام ٦٣٨ هـ ، ممن نظموا فى هذا الفن ، وله موشحته الرائعة :

سرائر الأعيان لاحت على الأكوانْ للناظرين
والعاشق الغيرانْ من ذاك فى حِرانْ يُبدى الأنين
يقول والوجدُ أضناه والبعدُ قد حيّرهْ
لما دنا البعد لم أدر مَنْ بعد قد غيّره
وهيم العبد والواحد الفرد قد خيره
فى البوح والكتمان والسر والإعلان فى العالمين
أما هو الديان ياعابد الأوثان أنت الضنين

وكان أول من حاول من المشارقة أن يجارى موشحى الأندلس ابن سناء الملك الشاعر المعروف ، وله فى هذا موشحته النادرة التى يقول فيها :

كلّلى ياسحب تيجان الربى بالحلى ، واجعلى سوارك منعطف الجدول
ياسما فيك وفى الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجما أظهرت أنجما
وهى ماتهطل إلا بالطلا والدما
فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى للدن طعم الشهد والفوفل

وهى موشحة طويلة معروفة .

ولابن سناء الملك غير هذه الموشحة موشحات أخرى رقيقة نذكر منها موشحته التى يقول فيها :

شمس المحيا أم القمر أم باق الثغر يابشر
أما البها حفه الخفر بطرز خديك مستتر
قم تباهى بما تباهى ولاتلاهى

فكل أحبابنا حضر والعود يشجيك والوتر
أفديك بالسمع والبصر ياأهيفا وصله وطرى
بدر بدا فى دجى الشعر قد لذ فى حبه سهرى
إذا تجلى وقد تحلى عليك يجلى

تحار فى وصفه الفكر　　والعقل والسمع والنظر
فهما حديث عن الطرب　　وعن سلاف ابنة العنب
إذا سقاها مع الضرب　　بدر بأفق الجمال رب
فى ظل بان على المثانى من غير ثانى
إلا الندامى إذا سكروا　　والروض والماء والشجر

وله أيضاً :

غــزال فــر　　من جنات عدن
وأبـدى بدر　　تم فوق غصن
وولى آخــذا　　لـلعـقـل منى
فـقـل لـلبـدر　　بدر الأفق عنى
إن بـــدرى　　غــــايب
فـكـن لطرفى　　عــنــه نـايب

هذه كلمة موجزة عن هذا الفن الأول ، الذى كان أول خروج على الشعر العربى فى مبناه لا فى ألفاظه إلا فى القليل ، قدمت به أولاً ، ثم أثنى بعد ذلك عن الخرجة الثانية ، وهى المواليا ثم الدوبيت ، ثم الكان كان ثم القوما لأدخل على الزجل الذى كان فى جملته الخرجة التى اتسعت لمبنى غير المبنى الشعرى وألفاظ غير الألفاظ العربية الفصيحة .

المواليـــا

عرضت وأنا أتحدث فيما سبق عن نشأة الزجل ، وأنه كان فناً مهدت له فنون أخرى من نوعه على سبيل التدرج أو الانسلاخ والانزلاق من العربية ، وقلت إن الموشحات كانت أول خروج على الشعر العربى ، وأنها إذا كانت ألصق شيئاً أعنى بالشعر العربى تكاد تكون من وزنه ومن لغته العربية الفصحى إلا فى القليل ، وتكاد تكون مقفاة ، كما تكاد تكون ذات بحر أعنى على مخصوص من بحور الشعر.

والمواليا فن آخر أو فن تال من الفنون التى انسلخت عن الوزن الشعرى ، وكانت أبعد شيئاً من الموشحات وزناً ولغة وسياقة .

وأنا لا أميل كثيراً إلى القول القائل بأن أول من قاله كانت إحدى جوارى البرامكة بعد نكبتهم ، وأنها كانت حين ترثيهم بشعر اصطنعته كانت تصيح فى آخر هذا الشعر «وامواليتاه » من أجل هذا سمى ماجاء من قولها وماجاء على نمطه بالمواليا .

وإنا نفقد ماقالته هذه الجارية البرمكية فى رثاء مواليها ولانعرف ماقالته ، كما لانعرف إن كان صح منها أنها ختمت شعرها بتلك الكلمة التى قالتها والتى من أجلها سمى قولها بالمواليا ، ولاتزال هذه التسمية غامضة ، ولايزال التعليل لها مجالا للبحث والدرس .

ونحن إذا درسنا هذا النوع من الكلام دراسة مدققة لانكاد نجد فيه هذه الخاتمة التى ختمت بها هذه الجارية كلامها ، والتى كانت سبباً فى هذه التسمية إذ لوصح هذا لكانت تلك الكلمة لازمة ، أعنى «واموااليتاه» لازمة لاتنفك تذكر مع كل مقطوعة مع هذا اللون من النظم .

غير أنا إذا نظرنا فى نظم هذا اللون من القول نجد أنه يتكون من نظم مداخل ، أعنى تدخل أشطار مختلفة من قوافى متغيرة ، وهذا مايدفعنى إلى القول أو إلى الاستنباط بأن هذا اللون من القول خليق بأن ينسب قوله إلى الموالى ، أعنى غير الفصحاء من العرب ، وعلى ذلك أستطيع أن أستنبط أن هذه النسبة كانت إلى الموالى بمعنى الدخلاء إلى العربية لا الموالى بمعنى الأسياد ، ويزكى هذا الاستنباط شيوع اللحن فى هذا الفن من القول وعدم الالتزام بالإعراب ، كما كانت الحال على عكس هذا فى الموشحات ، كما قلّ فيها الالتزام إلى حد باللغة ألفاظاً وإعراباً ، وفيها التزام إلى حد بالأوزان الشعرية ، وفيها التزام إلى حد بالقافية .

ولكن الأمر فى المواليا يهبط شيئاً عن ذلك كله ، ويكاد يكون أقرب شىء إلى لغة الموالى – أعنى من ليسوا عرباً – أعنى لغة العرب الخلص .

ثم معى دليل آخر على هذا الاستنباط أن أهل صعيد مصر وهم أبعد شىء من اللغة الفصحى يستسيغون هذا اللون من الفن ولهم فيه الكثير ، وهم ينشدونه على البديهة من غير إعداد ، وللجمهور هناك ولع بالاستماع

إليه والاستحسان له لاسيما أنه يشتمل على كثير من ألوان الجناس والتورية والمحسنات اللفظية التى يطرب لها الكثيرون من العوام المتذوقين ويعملون فيها قرائحهم ويجدّون فى استنباط ماخفى ودق من معانيها .

وأقدم ماوصل إلينا من هذا الفن هو ماجاء على لسان صفى الدين الحلِّى ، وإذا عرفنا أن صفى الدين الحلِّى كان ميلاده سنة ٦٧٧ هـ ، وأن وفاته كانت ٧٥٥هـ ، أى أنه كان مخضرماً ، عاش بين القرنين : السابع والثامن الهجرى ، أى فى عصر التدهور اللغوى ، كما نعرف أنه ترك لنا رسالة فى الزجل والمواليا .

هذا أقدم مَنْ عرفنا ممّن قالوا فى هذا الفن ، وهذا العصر هو عصر الانحلال اللغوى . وأكاد أضم هذه إلى ماقلت من قبل إلى نسبة هذا الفن إلى الموالى بمعنى من هم غير العرب ، وأن نشأة هذا الفن جاءت متأخرة عن عصر البرامكة ، وأن هذه النسبة التى شاعت على ألسنة من قالوا إن نسبته ترجع إلى لسان تلك الجارية البرمكية فى ختام كل مقطوعة قالتها فى رثاء البرامكة « وامواليتاه » قول غير صحيح ونسبة مشكوك فيها .

ودليل آخر أسوقه هنا يزكى استنباطى من أن هذا الفن لم ينشأ إلا متأخراً ، إننا نجد إلى جانب صفى الدين الحلّى رجلا آخر من أصحاب هذا القول ، أعنى القائلين بالمواليا هو إبراهيم المعمار ، وكتب التاريخ تحدثنا أن المعمار توفى سنة ٧٤٩هـ ، أى أنه كان معاصراً لصفى الدين الحلى ، حيث إن وفاته كانت قبل وفاة الحلى بحوالى ست سنوات ، وقد

جمعت له كتب التراجم – مثل الدرر الكامنة والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ، وفوات الوفيات لابن شاكر ، وبدائع الزهور لابن إياس – شيئاً من أقواله فى هذا الفن .

وبعد الحلى والمعمار ظهر ابن سودون فى أواخر عصر المماليك أو قريباً من آخره ، فلقد كان مولده فى القاهرة سنة ٨١٠هـ كما يذكر ابن العماد فى الشذرات والسخاوى فى الضوء اللامع وجورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ، وكانت وفاته سنة ٨٦٨هـ وكان من القائلين فى هذا الفن ، أعنى فن المواليا .

وقد اشتهر ابن سودون بأسلوبه الرمزى ، وكانت اللغة الدارجة فى هذا العصر – أى عصر ابن سودون – هى السائدة ، ومن أجل هذا كتب بها ابن سودون .

ثم ننتقل بعد هذا العصر إلى عصر الجبرتى ، وكانت فيه اللغة العامية هى السائدة حيث انزوت وخبت بجانبها اللغة الفصيحة ، وكانت الكتابة فى هذا العصر باللغة العامية ، وكان الجبرتى نفسه يكتب بالعامية .

وهذه النشأة المتأخرة لفن المواليا ورجوعها إلى عصر الانحطاط اللغوى وروده على لسان هؤلاء فى عصور مختلفة متتالية وهم : صفى الدين الحلى ، والمعمار ، وابن سودون ، يكاد يقطع بما استنبطت .

وإليك نماذج من قول صفى الدين الحلى لتتبين معى صحة مااستنبطت من أن شيوع العامية فى هذا الفن والخروج عن الإعراب ،

وكذلك الخروج عن موازين الشعر والخلط بين بحر وبحر ، كل هذا يؤيد أن نشأة فن المواليا كان فى عصر الانحطاط ، وأنه كان فناً يليق بالموالى ، أعنى من كانوا غير عرب ، ولهذا نسب إليهم :

يقول صفى الدين الحلّى :

سل مقلتيك الكحايل من سلاسلها　　ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التى مدت سلاسلها　　كم من أسود ضوارى فى سلاسلها

فهذان البيتان وإن كانا من بحر البسيط إلا أنهما مليئان بالتورية والجناس كما ترى ، ثم هما لا يخلوان من خروج على العربية .

ويقول صفى الدين أيضاً :

ياقلب إن غدروا فاغدر وإن خانوا　　فخُن وإن هم قسوا فاقسو وإن لانوا
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا　　فبن وكن لى معاهم كيفما كانوا

ويقول أيضاً :

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين　　أخطأ قياسه وفى قوله جمع ضدين
ماجدت إلا وثغرك مبتسم يازين　　وذاك ماجاد إلا وهو باكى العين

وله أيضاً :

عنى تسلّيت وأسياف الجفاسليت　　ومذتوليت عن طريق الوفا وليت
لما تمليت ليّا بالعمل مليت　　إذا تخليت تعرف قدر من خليت

أما المعمار فمن قوله المأثور فى المواليا :

لثمت عذار محبوبى الشرابى فقال تركت لثم الخد عجبا
حفظت اليانسون كما يقولوا ورحت تضيّع الورد المربى

وللمعمار أيضا :

لوأنصفت لأشارت بالسلام علىّ متيم ماقضى من وصلها وطره
بإصبع إنما عضت أناملها حتى ولا واحد يصفو عن العشره

ومن أبدع ماقاله المعمار فى المواليا مما هو ملىء بالجناس والتورية :

طرفى لمح حسن رايس قرّحو تقريح
أوسق بصدى وسمّى الهجر بالتصريح
قذف لعرضى وخلاّنى من التبريح
دمعى انحدر والعواذل تقذفوا فى الريح

ومثل هذا القول الملىء بالجناس والتورية :

رمى أصاب صميم القلب زين الزين
وأصبحت مضنى قلق أخشى حلول الحين
وكنت لم أشك قبل الخل وشك البين
سالم من العشق حتى صابنى بالعين

ولعل هذا القول للمعمار الذى أسوقه لك يدل على إغراق المعمار وتعمقه فى معانيه وهو قوله :

قلت لمن تركنى بالجفا ناحل
وصلك بكم وارحمى ذا العاشق الناحل
قالت بميتين جمل قلت لها أنا راحل
مالى جِمال ولكن نخل فى الساحل

أما ابن سودون فقد ضمن بعض قطع مواليه أغراضاً هزلية ، ومن ذلك قوله :

رأيت فى النوم عسل والموز فيه قد عام
كِنّوسمك فى بِرَك والقلب لو قد هام
طلبت أنا أمسكو استنبهت آه مادام
ضحكت علىّ بقيت أبكى عليه مانام

وقوله :

يافرحه جَتْ غلط فى النوم ولاتمتّ
من شىء على عشقو أحشاى انضمّت
وياتُرى بالفراق من بعد ماشمت
أرى الشُّميلات عليه أخى التمت

وقوله :

يابخت من يلتقيك إن لم يكن صايم
بالليل أو بالنهار يقظان أو نايم

في القطر تحكى سمك وسط البرك عايم
أهوى وصالك ولاخُص بلاش دايم

وورد فى الجبرتى وكان مداعبة الشيخ محمد سالم الحفناوى للشيخ حسن شمه وهما من علماء هذا العصر ، أى عصر الجبرتى :

قالوا تحب المدمس قلت بالزيت الحار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار
قلت تحب المطبق قلت بالقنطار
قالوا إيش تقولْ فى الخضارى قلت عقلى طار

فضحك الشيخ الحفناوى وقال : أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما أحبه بالسمن وأنشد :

قالوا تحب المدمس قلت بالمسلى
والبيض مشوى تحبه قلت والمقلى

وثمة فى هذا الفن أقوال لرجال ذكرت المراجع التاريخية والأدبية أقوالهم ولم تذكر أسماءهم وأكبر الظن أنهم فى عصور متخلفة عن عصر صفى الدين والمعمار وابن سودون والجبرتى لما فى أقوالهم من هبوط أدنى من هبوط من ذكرنا .

ومن ذلك قول أحدهم :

إن رِدْت تسلم بطول الدهر ماتبرح
لاتيأس ولاتقنط ولاتمرح

واستعمل الصبر لاتحزن ولاتفرح
وان ضاق صدرك ففكر فى ألم نشرح

وقول الآخر :

إن كنت عاقل وربك بالتقى برك
ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدّى حسودك والحسد ضرك
ناديه ياأيها الإنسان ماغرك

وقول الآخر :

طرقت باب الخبا قالت من الطارق
فقلت مفتون لاناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من ثغرها بارق
رجعت حيران فى بحر أدمعى غارق

ثم قول لآخر :

ياحادى العيس ازجر بالمطايا زجر
وقف على منزل احبابى قبيل الفجر
وصِيح فى حيهم يامن يريد الأجر
ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

وهذه الأمثلة التى سقناها من المواليا تتميز فيها تلك الاستخدمات الكثيرة من المحسنات اللفظية والتورية والجناس ، وهى وإن جاءت غير مداخلة الأوزان كلها تميزت بأخص مميزات هذا الفن ، فن المواليا .

الدوبيت

وأحب قبل أن أمضى فى الحديث عن هذا الفن الثالث أن أعرف بأصل الدوبيت ، فهذا التعريف لاشك سوف يلقى ضوءاً على مضمون هذا الفن الثالث .

فكلمة الدوبيت كلمة فارسية الأصل ، وهى مركبة من مقطعين ، أما عن المقطع الأول فهو « دو » ويعنى اثنين ، وأما عن المقطع الثانى وهو « بيت » فهو كما فى العربية البيت من الشعر . فالكلمة تعنى فى الفارسية الشعر المزدوج أو بمعنى أصح الشعر الثنائى .

وهذا التفسير يدلنا لاشك على أن أصل هذا الفن يرجع إلى أن الفرس أول من اخترعوه ونظموه بلغتهم وعنهم أخذه العرب .

ولا أدرى متى كان هذا الأخذ ، وأكبر الظن أنه كان بعد أن فتح العرب فارس ودخلوا تلك البلاد ، أعنى بلاد الفرس فى ظل الإسلام .

وعلى الرغم من أن هذا الفتح كان مبكراً ، وأن اختلاط العرب بالفرس وقع هو الآخر مبكراً ، وكان لابد من هذا وذاك أن يكون العرب المسلمون قد أخذوا هذا الفن مبكرين ، أعنى مع الفتح أو بعده بقليل .

ومن الغريب فى الأمر أننا لانجد فى شعر المسلمين الأوائل مكاناً لهذا

اللون من الشعر ، أعنى الدوبيت .

وأول ماوصلنا من ذلك شعر ينسب لبشار بن برد ، وبشار بن برد كما نعلم عاش بين سنتى ٩٦هـ و ١٦٧هـ ، وذلك حيث يقول فى بائعة طيور كان يشترى منها الخل :

رباب ربة البيت تصب الخلّ فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فهذان البيتان هما من هذا النظم ، أعنى نظم الدوبيت ، وهما يدلاننا على أن الدوبيت كان – فوق أنه من بيتين اثنين – من وزن شعرى معروف ، وهو بحر الهزج الذى وزنه مفاعيلن مفاعيلن .

غير أن الأمثلة التى جاءت بعد ذلك على ألسنة الشعراء تكاد تختلف وزناً ، وأنه جاء منه على وزن بحر من بحور الشعر المهملة الذى شطره :

فعلن متفاعلن فعولن فاعلن .

كما يقول صاحب سفينة الملك ، ويقول أيضاً صاحب سفينة الملك «وقد يدخل الخبن عروضه وكذلك القطع » .

وقد نظم فى هذا الضرب ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢هـ وابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨هـ وابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ وابن سودون المتوفى سنة ٨٦٨هـ ، ومن قول ابن الفارض فى ذلك :

أهوى قمرا له المعانى رق
من صبح جبينه أضاء الشرق

تدرى بالله مايقول البرق
مابين ثناياه وبينى فرق

ويقول أيضاً – أعنى ابن الفارض :

روحى لك يازائر الليل فدا
يامؤنس وحدتى إذا الليل هدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا
لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

ويقول أيضاً :

أهوى رشاكل الأسى لى بعثا
مذعاينه تصبرى مالبثا
ناديت وقد فكرت فى خلقته
سبحانك ماخلقت هذا عبثا

ويقول ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ :

ياعصر شبيبتى ولهوى أرأيت
ماأسرع ماانقضيت عنى ومضيت
قد كنت مساعدى على كيت وكيت
واليوم فلو رأيت حالى لبكيت

والملاحظ فى هذا الدوبيت الأخير خروجه عن التزام وحدة القافية فى عجز صدر البيت الثانى فلم يختمه بما ختمت به الثلاثة الأنصاف قبله .

ويروى لابن سودون فى هذا الباب قوله :

القطر على مقشر الموز مليح
ماأحسنو عليه فى الصحن يسيح
من كدّبنى فذاك ماجرّبه
من جرّبو يقول هذاك صحيح

ويقول :

من أعجب مارأيت فى أزمانى
مايولد عندنا سوى النسوان
ولا بينهم إذا كان صُغَيّر
يشرب لبن البزيز بلا * اسنان

ويقول ابن الوكيل المصرى المتوفى سنة ٧١٦هـ :

فى خدّك خط مشرف الصدغ سطور
والشاهد ناظر على الفتك بدور
ياعارضه بالشرع لاتقتلنى
الشاهد فاتك وذا حظك زور

وهذا الوزن يردنا إلى ماأوردناه من نظم ابن الفارض فى الدوبيت حيث خالف الشطر الثالث الأشطار الثلاثة الأخرى . فى قول ابن الوكيل هذا نرى هذه المخالفة ، وأيضاً يردنا إلى قول المتكلمين فى الدوبيت من أنه لايشترط فيه أن تكون الأشطار كلها على قافية واحدة .

بل يصح أن يخرج عليها الشطر الثالث من الأشطار الأربعة .

ومثل قول بعضهم :

إن جئت ريا الحمى ولاحت نجد
فاذكر ولهى وماجناه البعد
كنت أقاسى الصد حتى رحلوا
ياليتهم عادوا وعاد الصد

وقول الآخر :

أهواه مهفهفا ثقيل الردف
كالبدر يجل حسنه عن وصف
ماأحسن واو صِدْغُه حين بدت
يارب عسى تكون واو العطف

وقول ابن دقيق العيد :

الجسم تذيبه حقوق الخدمه
والقلب عذابه علو الهمه
والعمر بذاك ينقضى فى تعب
والرحمه ماتت فعليها الرحمه

ويقول ابن تاج الخطباء القوصى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٢٤هـ

ياغاية منيتى ويامقصدى
قد صرت من السقام كالمفقود

إن كان بدت منى ذنوب سلفت
هبها لكريم عفوك المعهود

ويقول تقى الدين محمد بن جعفر القنائى المتوفى سنة ٧٢٨هـ :

من بعد فراقكم جرت لى أشيا
لايمكن شرحها إلا يوم اللقيا
كم قلت لقلبى بدلا قال بمن
والله ولابكل من فى الدنيا

ويقول الشاب الظريف محمد بن على بن عبد الله التلمسانى المولود بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ والمتوفى سنة ٦٨٨هـ :

قاسيتُ بك الغرام والهجرْ سنين
مابين بكا وأنين وحنين
أرضيك ولاتزداد إلا غضبا
الله كما أبلى القلب يعين

أما قول ابن سودون :

الشمس والنجوم والقمر
إن لاح خيالها بماء النهر
فالشمس رغيف والنجيمات بيوض
والبدر كقرص جبن جاموسى طرى

فأنت ترى معى أن ثمة بيتين ووزنهما هو شكل الدوبيت بمظهره

العام ، وأن البيت الأول من هذين البيتين مصرع ، أعنى متفق فى حرف الروى ، غير أن حركة الحرف تختلف من حركة الضم إلى الكسر ، وكنا نميل إلى تسكين حرف الروى تفادياً لهذه المخالفة ، غير أن الشطر الرابع يلزمنا بأن يكون حرف الروى مكسوراً ، من أجل ذلك كان لابد من قراءة هذه الأبيات على هذه المخالفة فى حركة الروى من الضم إلى الكسر ، ومانشك أن هذا كما هو عيب فى الشعر الفصيح فهو كذلك عيب فى الأزجال ، بل يكاد يكون فى الأزجال أمعن فى القبح ، ثم إن الشاعر حين يضطر لارتكاب هذا العيب فى الشعر فهو يرتكبه فى القصيدة ذات الأبيات الكثيرة فلا ضير عليه أن يندّ عليه مع الكثرة بيت ، ولكن مع القصائد الكثيرة المحدودة الأبيات ، ولاسيما التى من الدوبيت ذات البيتين ، فالقبح أشنع ، وارتكاب هذه المخالفة يدل على عجز الشاعر أو الزجال عجزا بيّنًا ، ولاندرى كيف هان على ابن سودون أن يقول هذا ، ونظن أن فى الشطر الأول شبه تحريف بسيط قد يكون من الناسخ ، ولعل صحة الشطر :

للشمس وللنجـــوم وللقمر

وهذه النماذج من الدوبيت هى المعروفة التى وقعت للباحثين . ومنها نرى أن الدوبيت كما كان يدل عليه عنوانه من بيتين اثنين تتفق أشطارهما الأربعة فى القافية ، وقد يخرج على هذا الاتفاق الشطر الثالث .

وأن هذا اللون من الشعر يكاد يكون من الفصحى ليس فيه إلا

خروج قليل على الإعراب ، وأن وزنه كما قال صاحب سفينة الملك أنه بحر من بحور الشعر ، وأنه ليس كما قال غيره أنه من بحر الهزج .

ومن هذه الأمثلة المعروضة نرى أنه جاء على أوزان مضطربة خليط من هنا وخليط من هناك لاتعرفه بحور الشعر العربية .

والغريب أن هذا اللون من الشعر أعنى الدوبيت شارك فيه المصريون : كابن الفارض ، وابن نباته ، وابن سناء الملك ، وابن دقيق العيد ، والقوصى ، والقنائى ، والشاب الظريف ، وابن سودون .

ويبدو أن المصريين استخفوا هذا الوزن واستخفوا إيقاعه ، ولكنهم على هذا خرجوا على اتحاد الأشطار الأربعة ، وكانوا هم الذين أدخلوا هذا الخلاف على هذا الوزن فجعلوا الشطر الثالث لايتفق مع الأشطار الثلاثة الأخرى .

الكان كان

تكلمت فيما سبق عن فنون ثلاثة من الفنون الخمسة التى تتصل بالشعر العربى السليم وزناً ولغة وإعراباً ، وقدمت أيضا فيما سبق أن فنين من هذه الفنون الثلاثة يعدان قريبى الصلة بالشعر العربى وزناً ولغة وإعراباً ، وهما الموشحات والدوبيت . وأن الفن الثالث من تلك الفنون الثلاثة المذكورة قبل ، يفقد صلة من هذه الصلات الثلاث ، وهذه الصلة هى الإعراب ، ولهذا يقولون إن المواليا من الفنون الملحونة لفقدانه الإعراب جملة .

وهذا الفن – وهو الكان كان ، أو الكان وكان كما يقولون – يلحق بالمواليا فى أنه فن ملحون هو الآخر ، أعنى أنه يخرج على قواعد الإعراب ، ثم هو كذلك يخرج على مقاييس اللغة ولايبقى له من صلة بالشعر العربى إلا أنه يجىء على وزن واحد وقافية واحدة ، وإن كنا نلحظ أن الشطر الأول من مقطوعات هذا الفن يجىء أطول من الشطر الثانى فى كل بيت .

وهذا وإن عُدّ إخلالا بالوزن فإنه على أية حال ليس إخلالا بالوزن جملة . من أجل هذا قصر الباحثون اللحن فيه على الأمرين الآخرين وهما اللغة والإعراب .

وقبل أن أمضى فى عرض نماذج من هذا الفن وأتحدث عنها أحب أن أسوق هنا علة تسمية هذا الفن بهذا الاسم ، أعنى الكان كان أو الكان وكان ، كما يقول بعض الدارسين .

وهذه العلة تكاد تكون معروفة إذ كان هذا النظم خاصًّا بالحكايات والخرافات . أعنى أنه كان بمثابة الشعر المستوعب للقصص والمتضمن سرد الأحدوثات والخرافات ، والقائل فى هذا الصدد كثيراً مايتردد على لسانه كان وكان أو كان كان ، وتلك طبيعة الحاكى لأمور تمت بصلة إلى القصة والحكاية والخرافة .

من أجل هذا كانت تلك التسمية التى أطلقت على هذا الفن أو هذا الأدب الملحون .

ولايعنى هذا أن هذا الفن «كان وكان» بقى خاصًّا بالسرد القصصى أو حكاية ما كان ، بل نرى أن الأمر فيه قد تطور ، واتسع هذا الفن للمواعظ والحكم ، ويحكى أن ابن الجوزى وشمس الدين الكوفى الواعظ وغيرهما من الأدباء نظموا فيه ، ولكن لاقصصاً تقص ولاحكايات تحكى ، ولكن ضمنوه مواعظ وقصصاً .

ويقولون إن أهل بغداد هم أول من اخترع هذا الأدب الملحون ، وهم أيضاً الذين طوروه وخرجوا به من القصص والحكايات المحكية إلى الوعظ والحكم كما فعل ابن الجوزى وشمس الدين الكوفى - كما قلت لك قبل قليل - وهما من أهل بغداد .

ونعرف أن المصريين نظموا فى هذا الفن أيضاً ، ولكنه مما لاشك فيه أن دورهم فى هذا الفن جاء بعد البغداديين ، والذين يقولون هذا ، يقولون إن المصريين لم يكثروا فيه الكثرة التى عند البغداديين .

وكتب التاريخ تطالعنا بنماذج من هذا الفن وكانت فى القرن السابع الهجرى ولانجد فيها شيئا مذكورا من هذا الفن قبل هذا القرن ، أعنى القرن السابع الهجرى . وأن هذا القرن هو الذى شهد نشأة هذا الفن ، ولكننا لاندرى متى كانت تلك النشأة على وجه التحديد ، هل هى من أول هذا القرن أى السابع الهجرى أو بعد ذلك بقليل .

وخير مقطوعة تمثل هذا الفن فى صورته الأولى ، تلك الصورة الحاكية القاصة ، قول صفى الدين الحلّى :

شاهدت فى الليل طيرى
وقمت حتى أنصب شرك
ما كل صيد يحصل

يفرّح الصياد

طيرى الذى كان إلفى
لو زدت مثله ماحصل
وهوّ علىّ معوّد

وانا عليه معتاد

قد كان شرطى وخلق
لبرج غيرى ماعرف
كأننا فى الصحبه
جِينَا على ميعاد

من قبل ما أبصبص له
يجى ويدخل قصورى
وأنا أرصده فى مطاره
خايف عليه ينصاد

ثم قول الآخر :

ماذقت عمرى جرعه
أمَرّ من طعم الهوا
الله يصبّر قلبى
على الذى يهواه

الناس تعلم منى
حال الجلاده والقوى
وما أطيق التجلد
على اليم جفاه

لُو حَبْ مثل الخُوخَه
لُو لُونْ وطَعْم وريحه

ماأكثر مغابن حبيبى
ومــــاأقـــــل وفــــاه

أنـا عـرّفـتو حظى
وأحسن إليه ويسىء
لو كنت أعشق ظلى
ماكنت قط أراه

وقد حدثتك من قبل أن هذا الفن انتقل من القصص والحكاية إلى الوعظ والحكمة ، فمن ذلك قول بعضهم :

ياقاسى القلب مالك
تسمع وماعندك خبر
ومن حرارة وعظى
قد لانت الأحجار

أفنيت مالك وحالك
فى كل مالاينفعك
ليتك على ذى الحاله
تقلع عن الإصرار

تحضر ولكن قلبك
غايب وذهنك مشتغل
فـكـيـف يـامـتـخـلف

تحسب من الحضار

ويحك تنبه إذن
وافهم مقالى واستمع
فنى المجالس محاسن
تحجب عن الأبصار

يحصى دقائق فعلك
وغمز لحظك بعلمه
وكيف تغرب عنه
غوامض الأسرار

تلوت قولى ونصحى
لمن تدبر واستمع
مافى النصيحه فضيحه
كلا ولا إنكار

ثم قول صفى الدين الحلى :

ياسادة هجرونى
وهمّ نزول بخاطرى
لا أوحش الله منكم
فى سائر الأوقات

أوحشتم العين منى

وأنكم في خاطرى
والقلب في نور منكم
والعين في ظلمات

قد انتهى الصبر منى
ومابقى فىّ دمعه
هيهات أنى أحيي
من بعدكم هيهات

لم يبق غير خيالى
يلوح كالشبح الخفى
أعُدّ بين الأحيا
وانا مع الأموات

ودعتمونى وسرتم
والقلب يتبع ركابكم
إيش ضَرْلو كان جسمى
من جملة التبعات

مامر مارأيت ضدى
يقول لى من فرحته
هنا تشق المرائر
وتسكب العبرات

لولم أسلّى روحى
وأرضى نفسى بالمنى
لكان قلبى تقطّع
من بعدكم حسرات

وقفت لما رحلتم
حيران بين أظعانكم
أخفض جناح المذلة
وأرفع الأصوات

طول الليالى ساهر
كنى أريد الكيميا
أسبل الدمع نهرا
وأصعد الزفرات

مأطول ليالى جفاكم
ساعاتها مثل السنه
وما أكثر ليالى وصلى
كأنها ساعات

مالى أرى حسناتى
بالسيئات اتبَدلِت
وسيئات الأعادى

اتبدلت حسنات

خالفتمونى وعمرى
مازلت أتبع أمركم
كذا العبيد تتابع
أوامر السادات

اسكت واصبر عنهم
ويفعل الله مايشاء
والدهر من عاداته
يقلب الحالات

من هذه النماذج المعروضة يتبين لك كيف بدأ فن الكان كان قاصًّا وحاكياً ثم انتقل إلى الموعظة والحكمة ، ثم تلك الخاصية التى يجىء بها وهى أن يختلف شطره الأول عن الشطر الثانى .

غير أن الملاحظ قلة النماذج المعروضة فى الكتب التى عرضت لهذه الفنون مثل خلاصة الأثر للمحبى[١] ، والمستطرف فى كل فن مستظرف للإبشيهى[٢] . هذان المرجعان اللذان عرضا للكثير من نماذج هذه الفنون ، لم يعرضا إلا القليل فى هذا الفن ، أعنى فى الكان كان أو الكان وكان .

(١) جـ ١ ص ١٠٩

(٢) جـ ٢ ص ٢١٥

ولعل هذه القلة جاءت من أن الأقطار الأخرى لم تشارك البغداديين في هذا الفن بل تركوه لهم ، هذا إذا استثنينا المصريين وهم على هذا لم يقولوا فيه الكثير ، بل ما كادوا يلمون به حتى تركوه .

القـــوما

قدمت فى الموضوع السابق عن «الكان كان» . وأنه نشأ أول مانشأ ببغداد وقلت إنه كان فنًّا إخباريا بدليل عنوانه الذى وضع له وهو «الكان كان» ، وهذا العنوان لايزال يجرى على ألسنة الإخباريين المختصين بفن «الأحدوثة» ، والذين يبدءون أحدوثتهم بتلك الكلمة المأثورة : كان ياما كان .

وقد قدمت أيضاً وأنا أتحدث عن الكان كان أنه ذو وزن واحد وقافية واحدة ، غير أن الشطر الأول فيه يكون أطول من الثانى ، هذا وإن كان قد التزم فى ذلك الفن أولا ، غير أنه مالبث أن أدخل عليه تغيير وتبديل ، ولاسيما بعد أن انتقل هذا الفن من بغداد إلى بلاد أخرى أى إلى الشرق العربى ولاسيما مصر ، كما قلت أيضاً إن هذا الفن ، أعنى الكان كان طرأ عليه تغيير فى الوزن ، كما طرأ عليه تغيير فى الغرض ، فبعد أن كان يستعمل فى الأحداث الإخبارية ، كذلك أخذ يستعمل فى غير تلك الأحداث التى يتسع لها الشعر ، وماهو على نهج الشعر من تلك الأوزان المولدة .

وأنا أريد هنا بهذا التمهيد أن أربط بين هذا الفن الجديد الذى سأتكلم عنه هنا وهو القوما ، وبين الفن السابق وهو الكان كان ، فالفن

السابق وهو الكان كان قد نشأ ببغداد ، وهذا الفن اللاحق ، وهو القوما قد نشأ هو الآخر فى بغداد فيما نعلم ، وإن كان البعض يدعى أنه قد نشأ فى القاهرة غير أن هؤلاء الذين يقولون هذا ويقولون إنه نشأ فى القاهرة يعوزهم الدليل على ذلك ، وليس بين أيديهم مايؤيدون به رأيهم إلا أنهم لايزالون يسمعون شيئاً منه فى رمضان على ألسنة من نسميهم « المسحراتية » .

وأحب قبل أن أدخل فى الحديث عن إثبات رأيى الذى ذهبت إليه وهو أن نشأة هذا الفن ، « القوما » ببغداد لا القاهرة ، أحب أن أعرض للسبب الذى من أجله سمى هذا الفن القوما .

ويكاد يجمع الباحثون فى هذا أن سبب تلك التسمية أن هذا الفن أول ما قيل فى إيقاظ الناس من نومهم فى شهر رمضان لتناول طعام السحور .

وهذا يجرنى إلى التعرض لضبط هذه الكلمة القوما هل هى بالفتح أم بالضم ، ومامعناها ؟ ومايراد منها ؟

وأكاد أميل إلى أنها بالضم ، وهى فعل من قام يقوم ، وأكبر الظن أنه فعل أمر مؤكد بنون التوكيد الخفيفة التى تكتب ألفاً فى الإملاء .

وبعد ذلك العرض عن سبب التسمية أعود فأكمل بحثَ استقرائى عن نشأة هذا الفن ، وفى أى بلد كانت تلك النشأة ، ولقد قلت قبل إنه نشأ فى بغداد على يد ابن نقطة محمد بن عبد الغنى المتوفى سنة ٦٢٦هـ ،

وتحدثنا كتب التاريخ أن أباه كان له صلة بالخليفة ، وأنه لما مات أبوه « نقطة » لم يجد ابن نقطة وسيلة يصل بها إلى الخليفة ، وكان نقطة هذا له عند الخليفة وظيفة يتولاها ، ولم يجد ابنه « ابن نقطة » وسيلة يصل بها إلى الخليفة لينهى إليه خبر وفاة أبيه ليوليه مكانه فى تلك الوظيفة التى كان يشغلها أبوه .

والذين يقولون هذا يقولون إن نقطة كانت وظيفته إيقاظ الخليفة الناصر لدين الله للسحور ، ولم يكن نقطة هذا فى وظيفته تلك يلتزم شيئاً من القول لإيقاظ الخليفة ، أعنى أنه لم يكن يجرى على لسانه فى تلك المهمة ذلك الذى يجرى على لسان ابنه ابن نقطة حينما جمع أتباع أبيه وذهب إلى مكان قريب يسمعه منه الخليفة وجعل ينشد :

ياسيد السادات ... لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطة ... تعيش أبويا مات

وهذا الخبر وإن بدا فيه من التلفيق مالا يغيب عن ذى عقل فإنه على هذا لايكاد ينفى أن ثمة قائلا هو ابن نقطة ، وأنّ قولا مامثل هذا نسب إليه .

ونحن نرى أن ابن نقطة ما كان فى حاجة إلى أن يتقرب إلى الخليفة الناصر العباسى بهذا الأسلوب الهين ، ولقد كان ابن نقطة أعلى شأناً من أن يهبط إلى هذا المستوى ، فابن خلكان يحدثنا فى كتابه « وفيات الأعيان » بأنه كان عالماً بالأنساب حافظاً للحديث ، كما يذكر له ابن

خلكان من المؤلفات كتاب « الدين على الإكمال » وهو يقع فى مجلدين ، وكذلك كتاباً فى الأنساب ، ثم كتاب « التقييد لمعرفة رجال السنن والمسانيد » . وهذه كلها كتب لايقوى عليها إلا عالم متمكن فى علمه .

وإذا كنا لانملك هنا غير مجاراة من يخترعون هذه القصة المنسوبة لابن نقطة ، فابن نقطة حقًّا كان يعيش فى أيام الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن الحسن ، إذ كانت وفاة هذا الخليفة سنة ٦٢٢ هـ ، ثم ليس من نعرف بهذا الاسم « ابن نقطة » غير هذا الرجل الذى ترجم له ابن خلكان .

ونحن حين لاندفع ماجاء على ألسنة من نسبوا هذا اللون من القول على لسان ابن نقطة نقول لعل من قال هذا هو الجد ، قال هذا اللون من الكلام ، ولعل شهرة ابن نقطة جاءت متأخرة بعد ما كان من ابن نقطة وحديثه مع الخليفة الناصر .

وهذا الميل منى إلى جعل ابن نقطة أول من أنشأ هذا الفن أنى لم أجد فيما جاء من منظومات فيه ، أعنى فى فن القوما ، نظماً لرجل سبق تاريخه ابن نقطة ، وإن كان بعض المؤرخين يقولون إن هذا الفن قديم أقدم من ابن نقطة ، وإنه اخترع قبله ، ولكنّا حين نبحث فى المراجع التى تناولت هذا الموضوع لانجدها تذكر غير منظومات لابن نقطة هذا ، ومنظومات أخرى لصفى الدين الحلّى عبد العزيز بن سرايا المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ثم لآخرين مجهولى الاسم لانعرف أزمانهم ولا أمكنتهم .

وهذا الفن أعنى القوما – كما قلت قبل – اخترع فى بغداد ، ثم انتقل فى المشرق شأنه فى هذا شأن كل فن آخر لايلبث أن يجاوز البلد الذى نشأ فيه إلى البلدان الأخرى العربية قريبة أو بعيدة . ولكن الذى أحب أن أضيفه هنا قبل أن أعرض لهذا الفن ، القوما ، أقول إن هذا الفن كان قريباً من الكان كان وزناً كما يقولون ، وإن كنت لاأميل لهذا ، إذ النماذج المعروضة لاتكاد تعطينى هذا ، وإن وزن القوما يكاد يكون من البحور القريبة من الأوزان السليمة ، وإنه موحد القافية ، أعنى أن قافيته لاتختلف من أول بيت إلى آخر بيت ، وهذا مايتضح لك فى هذا العرض الآتى :

يقول صفى الدين الحلّى :

من كان يهوى البدور ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو وقد جلس فى الصدور
من حب بيض الخدور ورام لزوم الصدور
يسمح وإلا فيبقى من بينهم مهدور
كم بين سجف الخدور من عاشق مصدور
يرعى الكواكب لعله يرى جمال البدور
بين الحلل والجذور وجوه مثل البدور
إشرافها فى المعاجز وعز بها فى الصدور
نـوائب المقـــــدور مثل الكواكب تدور

من بعد طيب الخواطر　　يقضى بضيق الصدور

ولصفى الدين الحلّى أيضاً :

حال الهوى مجبور　　يريد جلد الصبور
يصون سره وإلا　　يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور　　يحظى برفع الستور
ومن هتك سر حبّه　　يمحى من الدستور
ابذل لبيض النحور　　أموال مثل البحور
إن ردت تملك وتظفر　　ولـــدانهم والحور
قم فابذل المدخور　　وفى العطا لاتجور
تريد هذى المحبة　　قلوب ° مثل الصخور
كم حول تلك الخدور　　من عاشق معذور
مثل الدواليب تجرى　　دموعـــه وتـــدور
من يركب المحذور　　هو فى الهوا معذور
يظفر بحبه ويبلغ　　قصده ويوفى النذور
كن بالهوا مسرور　　ولاتـبـيت مـغـرور
واجعل تراب أعتابهم　　لأجفان عينك درور
طرق المحبة وعور　　كم بينها مذعور
من فتك بيض السوالف　　على سواد الشعور
كم عاشق مذعور　　من صد حمر الثغور

يغار قلبه ولكن مـدامـعـه مـاتـغـور
كم بينهم يعفور كالظبى آنس نفور
من أهل بدر فديته إيش ماعمل مغفور

يقول بعض القائلين فى هذا الفن ممن نجهل أسماءهم :

لازال سعدك جديد دائم وجدك سعيد
فى الدهر أنت الفريد وفى صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح وأنت بيت القصيد
يامن جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ومن يلاقى الشدائد بقلب مثل الحديد
لازلت فى تأييد فى الصوم وفى التعييد
ولابـــرحت ممتـسـع بكل عام جديد
نحن لذكراك نشيد بـقـولـنـا والـنـشـيـد
ونبعث أوصاف مدحك على خيول البريد
ظلك علينا مديد مافوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك قــريــبـنـا والـبـعـيـد
لازلت فى كل عيد تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك وافر وظلك مديد

وهذه قطعة أخرى كان يغنى بها المسحراتى للسلطان الملك الصالح يدعوه بها للسحور :

أنت ياقبلة الكرام زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنين
انت شامه بين الأنام الله يحرس شمايلك
ويؤيدك بالدوام تانعيش فى فواضلك
وتانطوى ذكرى الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنّيك بكل عام والخلايق تقول آمين

البليق والحماق

وهذان فنان من فنون القول المنظوم على نمط الفنون التى قدمتها ، من قبل – وكنت أميل إلى أن أعدهما منفصلين عن الزجل كانفصال الفنون السابقة ، وإن لهما خصائص تلك الفنون السابقة التى فصلتها عن الزجل فى أنهما كتلك الفنون يتميزان بالوزن الذى هو وزن شعرى سليم لا يشينه إلا القليل ، وبالقرب من الفصحى أو بالاندماج فيها التى هى صفة الشعر السليم .

فتلك الفنون السابقة التى تحدثت عنها لها هاتان الصفتان : الصفة الوزنية والصفة اللغوية ، ثم لها بعد هذا صفة التلوين والتنويع ، أعنى الأغراض التى فيها الشعر . وهذه الصفات يكاد هذان الفنانان وهما البليق والحماق يشاركان هذه الفنون السابقة فيها ، غير أنهما لايشاركان تلك الفنون السابقة مشاركة كاملة ، فهما لهذا يعدهما بعض الدارسين من ألوان الزجل يلحقون بهما المكفرات والمزبلحات والمزنمات والقرقيات .

وأنا وإن كنت أميل إلى ضم هذين الفنين إلى الفنون السابقة فإنى أكاد أكون أشد ميلا إلى جعلهما فنًّا وسطاً قائماً بين الفنون الأولى التى تكلمت عنها ، وأكاد أميل إلى التفرقة بينهما وبين الفنون الأخرى الزجلية التى ضمها إليها بعض الدارسين وهى المزبلحات والمزنمات والقرقيات

والمكفرات . فهذه الفنون الأخيرة من الزجل لاشك فى ذلك ، وسيكون لى حديث معها عند الكلام عن الزجل .

وقبل أن أدخل إلى البليق والحماق أحب أن أعرض إلى هذه التسمية ، وهى وإن كانت تسمية سكت عن سببها الدارسون قديماً غير أن ماذكره الدارسون من قبل حول أغراضها يكاد يعطينا شبه دليل على سبب هذه التسمية . فقد قالوا : إن ماتضمن الكلام عن الهزل والخلاعة فهو بليق ، وأن ماتضمن الهجو والنكت فإنه يقال له الحماق .

وهذا الكلام وذاك إن كشف شيئاً عن الغرض فإنهما لايلقيان ضوءاً على التسمية .

وفى ظنى أن البليق على لفظ التصغير ، وهو على وزن زبير ففتح فسكون ، وأن هذا الاسم كان كفرس سباق وكان مع ذلك يعاب ، وكانوا يقولون لمن يسخرون به ويهزءون ويتهمونه بالتخلف برغم إجادته : يجرى بليق ويذم بليق ، ومثل هذه العبارة تقال فيما يوصف بالهزل والخلاعة .

أقول هذا ولا أجزم به إلا أنه جهد منى ورأى أردت أن أدلى به بعد أن لم أجد من عرض له من الأقدمين ولا المحدثين ، اللهم إلا أن تكون الكلمة مردها إلى الأصل فى مادة «بلق» وهى الجمع بين السواد والبياض ، وهى على هذا أيضاً لاتخرج عن استنباطى الأول ، فالمعنى

على كل حال أصله يرجع إلى ماجمع بين متناقضين فكان مثاراً للهزل ومدعاة للسخرية .

هذا عن البليق ، أما عن اللفظ الثانى وهو الحماق فأكاد أجزم أنه على وزن غراب ، وإذا رجعنا إلى هذا اللفظ بوزنه هذا فى كتب اللغة نجد أن كتب اللغة تقول الحماق كغراب وسحاب : الجدرى وشبهه ، وهذا العيب فى الوجه أو الجسد مما يجعل صاحبه أن يذم ويسخر منه ، وقد قدمت قول الأقدمين فى الغرض من هذا الفن من القول ، وأنه ماتضمن الهجو والنكت .

وعلى أية حال فالذى أثر لنا من البليق فصيح فى جملته رقيق الأسلوب عذب النغم موزون . وهذا كله ماجعلنى أضمه إلى الفنون السابقة ، ولولا أن اللحن يدخله ماعدلت عن ذلك الرأى ، ودخول اللحن عليه هو الذى جعلنى أجعله فناً وسطاً بين الفنون السابقة وفن الزجل .

وما أثر لنا من هذا الفن أعنى البليق كان مقطوعات كل مقطوعة منها تسمى بليقة ، وسوف ترى فى كل بليقة أن ثمة شبهاً بينها وبين الزجل فى أن لها خرجة هى نفس المطلع .

يقول الحسن بن هبة الله الإدفوى المنعوت بالشمس ، والمتوفى سنة ٧٢٠هـ :

إن المليحة والمليح كلاهما حضرا ومزمار هناك وعود

والروض فتحت الصبا أكمامه فكأنه مسك يفوح وعود
ومدامة تجلى الهموم فبادروا واستغنموا فرص الزمان وعودوا

فهذه البليقة فصيحة موزونة ليس فيها من عيب غير ذكر «كلاهما» ولو صحت هذه الكلمة لكان ذلك شعراً سليماً لاعيب فيه .

والحسن بن هبة الله يقول بليقة أخرى :

ياقوم وإيش هذا الفضول تـقـرءوا الـفصول
الملحة تقرأ يافلان أو مختصر شيث والبيان
هذا يجنن بالضمان لسائر أرباب العقول
من قوله معدى كرب القلب أضحى منكرب
وبيت عقلى قد خرب وشرح حالى فيه يطول
من صحراوات مع حبليات ومد وشد مع حات بات
من الذى عنده ثبات يفهم مفاعيل مع فعول

وفى هذه البليقة نرى المعانى التى استنبطها من قبل واضحة جلية والتى جعلتنى أميل إلى أن هذا الفن وسط بين الفنون السابقة والزجل .

وقد ترى معى فى هذه البليقة الآتية التى يقولها عبد الرحمن بن عمر ابن الحسن التميمى المنعوت بالكمال ويعرف بالمشارف والمتوفى سنة ٧٠٩ هـ :

ذا الأسمر بالعوينات السود يسحر
ذا الأهيف كم على ضعفى يتصلف

لو أنصف كنت أجنى الورد المضعف
وأتـــرشـف من رضابو العذب القرقف
إلى أن أسكر
إلى كم دا تتبع صدك والهجران
وتـتـعـدى وتعاند فيك السلطان
مما ترى وتـعـاملنى بـالإحسـان
عسى تعذر ونغنى لك بالمزهر
ذا الأسمر بالعيونات السود يسحر

فهذه البليقة قريبة من الزجل فى أن لها خرجة هى نفس المطلع فى الزجل .

وثمة ناظم آخر فى هذا الفن وهو عمر بن محمود ، والمنعوت بالشرف ابن الطفال المتوفى سنة ٧٢٢ هـ يقول :

فى ذى المدرسا جماعة نسا
إذا أمسى المسا ترى قرقعه
نسا ذا الزمان يصيروا أربعه

فهذه البليقة تفصح لك الكثير من أغراض البليق .

وإليك مايقوله عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم المخزومى المتوفى سنة ٧٠٥ هـ :

إنك قد أرى فى اللصوص يـــــــابن المصـوص

خنجرى كان فى الطبق ومنتصر فى القول صدق
وأنت أخذته بالسبق لــــعب الـــــفصوص

ثم ما يقوله إبراهيم المعمار المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فى هجاء الأمير طشتمر الذى كان يلقبه العامة «حمص أخضر» :

جننت بالملك لما أتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى ياحمص أخضر وداجن

وقوله فيه أيضاً :

أوردت نفسك ذلا ورد النفوس المهانه
وبالدنيا حزت مالا ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب ياحمص أخضر ملانه

ثم مايقوله علم الدين أحمد بن الصاحب المتوفى ٦٨٨ هـ فى الصاحب بهاء الدين بن حنا :

اشرب وكل واتهنى لابد أن تتعنى
يكتب على بن محمد من أين لك يا ابن حنا

من هذا كله نرى أن البلاليق كانت تقال فى أغراض مختلفة : سياسية واجتماعية وهزلية .

ولقد كان للمصريين مشاركة كبيرة فى هذا الفن ، أعنى البلاليق ، وإن كثيراً من المسرحيات فى العصور الوسطى كتبت بها ، وحسبنا دليلا على ذلك ماجاء فى طيف الخيال لابن دانيال الكحال .

أما عن الحماق فلقد كان فنًّا عراقيًّا فيما يبدو ، والمراجع التى بين أيدينا لاتكاد تعطينا إلا أمثلة قليلة منه .

ولقد ساق لنا الإبشيهى منه بعض الأمثلة ، فمن ذلك :

أنا ماعبورى الحمام لجسمى لكى ينظف
إلا لدمع جارى على الماء ولا يوقف
وديك المجارى تجرى ودمـعى يسابـقـها
تقول الأنام فى الحمام له أحباب فارقها

ثم يقول آخر :

ترى كل من نعشقو علينا يقيم أنفه
فأسلاه وأترك هواه وأسد الطريق خلفه
وإن زاد علىّ عشقو وزاد بى الهوى والذل
تركته ولو كان يحيى لأهل القبور الكل

ولابن سودون فى هذا الفن قوله :

أيامن وصالو بالأرواح لايغلى ولا الأموال
لوصــلك جيبى ارتاح لكان من لغيرك مال
بسيف الهوى لما صال جفنك بى غدا سفاح
فقطع بحدّو الأوصال لما صار لى جراح

ومما قاله أيضاً :

إلى كم جفاكم هجران حبى طال أبعادى

حبيبى بطول الأزمان لاتوفى بميعادى
وصالك سبب إسعادى عنّو عاقنى الحرمان
ففرح فؤادى الصادى قد طالت بى الأحزان

ومن هذه الأمثلة المعروضة نجد أن هذا النوع من الشعر لايقوم على عمود شعرى ولايلتزم قافية ، ثم نرى ظاهرة اللحن فيه فاشية .

ولعل هذا هو الذى جعل بعض الدارسين من قبل يجعلونه فنًّا من الزجل لا من تلك الفنون التى ذكرتها قبل ، ولكنه على أية حال يرتفع عن الزجل شيئاً ، وهذا ماجعلنى أميل إلى رأيى الذى ذكرته ، فما عرض منه ليس بالشىء الكثير الذى يجعل الحكم عليه من المجزوم به ، هذا إلى أنه يلاحظ أن المصريين لم يسهموا بنصيب فى هذا الفن ، ولعلهم لو أسهموا لتركوا لنا قدراً من القول نسهم به فى الحكم عليه .

الزجـــل

وهذا الفن - فيما أرى - هو آخر تطور مُنى به الشعر العربى الصحيح ، فلقد كانت الفنون التى تكلمت عنها من قبل فنون انحراف مُنى بها الشعر العربى أولا مرحلة بعد مرحلة ، أو مُنى بها الشعر العربى جميعاً فى وقت واحد على اختلاف البيئات ، وهذا ماأرجحه ، وإن كان ماثبت من هذه الفنون تختلف أزمانه ، وهذا الاختلاف الزمنى هو الذى جعل الدارسين لهذه الظواهر يرتبونها فى الانحدار على وفق أزمانها أو على وفق قربها أو بعدها من الوزن السليم واللغة السليمة .

وإذا أخذنا بهذا الرأى الأخير نستطيع أن نعد الزجل هو الآخر فنًّا نشأ مع الفنون الأخرى السابقة ، وأكاد أضعه فى مقدمة تلك الفنون نشأة ، وإن كان الدارسون لتلك الفنون يجعلونه متأخراً عنه ، وإنه كان لوناً من ألوان الانحدار الأخيرة .

غير أنى وأنا أخالف هذا الرأى ، أقول إنه منذ أن كانت لغة عامية إلى جانب اللغة العربية الفصيحة ، ولقد كان هذا فى عصور مبكرة ، كانت نشأة الزجل ، فالزجل هو مقول العوام ، وحيث كان ثمة عوام إلى جانب الفصحاء كان هذا اللون من الزجل ، فهو بنية عامية على نمط البنية العربية لاتلوين فيه يحتاج إلى جهد ، كذلك التلوين الذى يحتاج

إليه فن الموشحات ، والكان كان ، والمواليا وغيرها من فنون القول التى سقتها من قبل ، لهذا أكاد أقدم نشأة فن الزجل على نشأة الفنون الأخرى مخالفاً بذلك من قالوا إنه نشأ فى عهد الملثمين على يد أبى بكر بن قزمان بالأندلس وأنه كان تفريعاً على الموشحات .

والزجل كما يملى معناه اللغوى هو التطريب ، تطريباً ينساق مساق الشعر وزناً ، غير أنه وزن يضبطه النطق لايضبطه الرسم ، أعنى وزناً يعتمد على مخرج الحروف والكلمات ، كما يخرجها الناطق ، وقد يدغم وقد يخفى وقد يتخطى الحرف والحرفين ليستقيم له الوزن الذى التزم به الزّجال ، فهو شاعر لاينضبط لسانه بالرسم والقاعدة ، ولكن بالنطق كما يحلو له ، ثم هو بعد ما أحل نفسه من هذا الوزن المعمول له فى الشعر من قيود مرسومة أحل نفسه من التزام قافية موحدة يلتزمها فى القصيدة الزجلية كلها ، وإن كان منهم ، أى من الزجالين ، من التزم هذه الوحدة فى القافية .

فالزجل على هذا صنو الشعر منذ أن كانت العامية صنواً للعربية ، وكما قال الشاعر العربى الفصيح الشعر قال الزجال أزجاله ، فكان للشعر أوساطه وبيئته ، أعنى البيئة العربية والوسط الفصيح ، وكذلك كان للزجل أوساطه وبيئته ، أعنى عامة الشعب والبيئة التى لاتقيم العربية السليمة .

وإذا كان للشعر بحوره وأوزانه كذلك كان للزجل بحوره وأوزانه ،

ولكن الفرق بين الحالين أن الشعر كان علماً تضبطه قواعد يلتزم بها الشاعر وكان الخروج على شيء من هذا يعد عيباً ونقصاً ، ثم إن هذه البحور الشعرية قد أحصيت فى أزمنة سابقة وكان الشعراء بها ملزمين ، ولم يعد ثمة ابتكار أو إضافة ، لذا وقف الشعر جامداً عند هذه البحور لايتعداها ، حتى إن علماء العروض سموا مازاد على البحور الثلاثة عشر التى انتهى إليها الخليل بحوراً مستحدثة وهى البحور الثلاثة ، وهى البحور التى زيدت على البحور الأولى فجعلها ستة عشر بحراً .

وعلى حين حدث هذا فى الشعر حدث نقيضه فى الزجل ، فلقد كان الأمر مطلقاً والباب مفتوحاً لاقاعدة ولاوزن ولاقيد ، وهذا شأن اللغة العامية يدخل عليها كل يوم جديد فتقبله ويلغى من قاموسها كل يوم مايلغى فتنساه ولاتعود تذكره ، ويبتدع فيها المبتدعون ماعنّ لهم وما تمليه أهواؤهم فلا يرد عليهم من ذلك رادّ .

ولو تتبعنا الأزجال منذ كانت إلى يومنا هذا لوجدنا هذا كله واضحاً جليًّا يمثله لنا أكثر من مثل وتجلوه لنا أقوال مختلفة .

غير أننا نلاحظ أنه مع العصور التى اختلطت فيها العربية بالعامية وشارك رجال العربية رجال الغامية فى تلك العهود التى كان لزاماً على أهل العربية أن ينزلوا شيئاً إلى مستوى العامية ، أعنى حين شارك الفصحاء من المتكلمين فى قول الزجل لتلك الضرورة التى سقتها ، فإنا نجد فن الزجل على ألسنة هؤلاء الفصحاء يعلو شيئاً إلى مستوى الشعر

الفصيح ، ويكاد يكون فيه التزام البحر والقافية والوزن والارتفاع عن المهاوى والخروج التى يفحش فيها الزجالون الذين ألسنتهم عامية ولانصيب لهم من الثقافة العربية .

وفن الزجل إذ كان قديم النشأة كما أقول ، ومنفتح الميدان لاحدود له تحدّه كما للفنون الأخرى التى سبقتها ، ولا التزامات له يلتزم بها القائل ، كما كان الأمر فى الفنون السابقة ، لذا كان القائلون فيه كثيرين على مر الزمان وعلى اختلاف البيئات .

وأحب أن أضيف أن فن الزجل كان دون الشعر ودون الفنون الأخرى التى تكلمت عنها ، فهو خير معبر عما يمس الشعوب ويصف أحوالها ويترجم عما تحس وتعبر عما تكن ، وبالجملة فلقد كان لسان أفراحها وأتراحها وبُؤسها ونعيمها ، وكان خير مترجم عن آمالها وآلامها ، أو فى عبارة أعم كان هو الأمة بكل مظاهرها ، ليس فى كل العصور لكن فى العصور التى انحطت فيها العربية وطغت فيها العامية ، وما كان أكثر تلك العصور ، ولا زال عصرنا يعانى هذه الظاهرة ويعيش فيها .

ومن أقدم ما أثر لنا من فن الزجل قول ابن قزمان :

وعريش قد قام على دكان   بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان   فى غلظ ساق

وفتح فمه بحال إنسان فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح ولقى الصباح

ثم قول مدغليس :

لاح الضيا والنجوم حيارى فقم بنا ننزع الكسل
شربت ممزوجاً من قراعا أحلى هى عندى من العسل
يامن يلمنى كما تقلد قلدك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب مولد وأنه يفسد العقول
لأرض الحجاز يكون لك أرشد واشن ماساقك لذى الفضول
مُرْ انت للحج والزياره ودعنى فى الشرب منهمل

ولقد أعجب بقول مدغليس هذا زجال آخر هو محمد بن عبد العظيم ، ولم يبعد عن هذا الميدان ابن عبد العظيم ، فلقد شارك أيضاً فى الزجل ، فقال :

حل المجون ياأهل الشطاره مذ حلّت الشمس بالحمل
جددوا كل يوم خلاعه لاتجعلوا اسمها يمل

ومن أبدع مايؤثر فى الزجل قول الحسن بن مالك :

لى دهر بعشق جفونك وسنين وانت لاشفقة ولاقلب يلين

ولم يبعد عن هذا الميدان ابن الخطيب فلقد شارك أيضاً فى الزجل فقال :

بين طلوع ونزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقى من لا يزول

هؤلاء هم صفوة زجالى الأندلس ، نرى من بعدهم زجالين من المشارقة كابن سناء الملك الذى يقول :

أصبحت للدنيا الدنية كارهاً لا أشتهيها
وعققت منها طائعاً أمى فما أنا من بنيها
ووهبتها منى لبا ئع نفسه كى يشتريها
ورفضتها لغرورها ولخسة الشركاء فيها

ويقول :

نهانى الحبيب عن حبى له قلت نعم إنى اليك أنتهى
فقال لى مثلى كثير قلت من مثلك قل* لى فلعلى أنتهى
فقال لى البدر فقلت انت هو فقال لى الشمس فقلت أنت هى

وقال فى ميتّ نقل إلى غير الموضع المدفون فيه من بلد إلى بلد آخر :

أيا من تغرب بعد البلى مصابك أبكى فؤادى وعينى
ويومك يومان لاواحد بنوك به شربوا غصتين
وربك إذا صبروا للأسى سيؤتيهم أجرهم مرتين

وقال مُلغِزاً فى ند :

أخبرونى عن مرهف القد مطبو ع حبيب إلى القلوب مكرم
أسود أبيض بليد ذكى طائر واقع سقى منعم
وهو طورا مركب وبسيط وهو طورا مفارق ومجسم

وهو مما فى البحر يلقى وفى البر	ومما فى جسمه اللحم والدم
وهو عندك الملوك يبتاع بالآ	لاف تبرا وقد يباع بدرهم
وهو لايلبس الحلى ولكن	ربما كان فى اليمين مختم
وهو طفل شيخ وهذا عجيب	وهو فرد زوج وهذا سلم
وهو بالنفس طاب أصلا وفرعاً	وهو بالقلب حل فيه المحرم
وهو فعل إن غيروا منه حرفا	وهو اسم معناه فى الحال يعلم
وعلى نفسه ينادى جهارا	وإذا كلّموه مايتكلم
وإذا عاقبوه فى الدارقدفر	إلى سطحها على غير سلم
بعضه معجم فإن عكسوه	علموا أن بعضه غير معجم
أنا أوضحته وبيّنته جدا	وأفهمته لمن كان يفهم
وكأنى به وقد علموه	وقت أن يقرءوه والله أعلم

ولصفى الدين الحلّى مادحاً أحد الكبراء :

أنت ياقبلة الكرام	زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام	ويديمك على السنين
أنت شامة بين الأنام	الله يحرس شمايلك
ويزيدك على الدوام	لكى نعيش فى فواضلك
ماينطوى ذكر الكرام	لما تنتشر فواضلك
ونهنيك لكل عام	والخلايق تقول آمين
قد بقينا بك فى أمان	الله يحييك طول السنين

مارأينا تحت ذاك الفلك　　من ندى كفك أعم
كل من جا ليسألك　　ليس تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك　　ضاعف الله لك النعم
أنت والجود كالغمام　　وسماك فوق ماردين
در غيثك فى انسجام　　عم كل السائلين
كل ليلة وكل يوم　　ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم　　بالغ القصد والمنى

وإلى هنا ينتهى ما أثر لنا عن الزجالين فى الأندلس والمشرق ، ثم نرى أن فن الزجل حين انتقل إلى مصر كان للمصريين فيه جولات وصولات .

الـــواو

فن لايزال يردده بعض زجالينا فى المطارحات من حيث لايدرون ، وهذا الفن يكون فى الغالب من بيتين بيتين ينتهى الصدران منهما كما ينتهى العجزان بكلمتين متفقتين فى اللفظ مختلفتين فى المعنى ، ومن أمثلة ذلك ماقاله الشيخ عبد الله لهلبها :

يااللى هواك هوسنا ولانافعنى حجايب
وفكر علىّ هوا إسنا مع ساكنات الحجايب

ومما يؤثر له أيضاً فى الفن ، فن الواو ، قوله :
ليالى وصاله جفتنا وأيام هجره محامى
ونون الحواجب جافتنا وعامل جبينه محامى

وللشيخ أحمد القوصى فى الواو يهنئ حفنى ناصف :
افرح ياحفنى بأسيوط يابو الأدب والسياسه
الكل بالنَّقْلِ مبسوط عقبال تولِّى الرياسه
لكن قنا فى لظاها من كتر شوقها بَعَدْلك
دى رِفْعتك من مُناها وان غبتْ لاتنسى فضلك

فرد عليه حفنى :

ياسيد أحمد ياقوصى   ماحدّ زيّك فى الدنْيَهْ
أهديك ولائى وخلوصى   وميت سلام لك بالعنية
أحييت لنا فن الأزجال   من بعد ماطالع فى الروح
أبواب أدب أشكال والوان   واللى مايفهمهاشى لوح

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمي	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د . محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى

٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف
٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د . أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د . سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د . إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د . على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الإجتماع	د . فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د . كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د يوسف عبد المجيد فايد
٣١أ– محمود حسن اسماعيل	د . عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د . مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة الى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د . خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د . الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية

٤٢ – اللغة الفارسية	د. محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د. عبد المنعم النمر
٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلى
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د. حسين عمر
٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د. عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسى	د. عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د. حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعى	د. فوزية فهيم
٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوق أمين
٥٣ – مرض السكر	د. أحمد غريب
٥٤ – شوقى أمير الشعراء... لماذا ؟	فتحى سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د. أحمد عاطف العراقى
٥٦ – الشعر فى المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د. عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	على شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د. فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د. إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية فى الأدب الفرنسى	د. أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ – التعبيرية فى الفن التشكيلى	د. نعيم عطية

٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ – العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحى
٦٨ – قادة الفكر الاقتصادى	د . صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائى العربى	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د . يوسف عز الدين عيسى
٧١ – بحر الهواء الذى نعيش فيه	د . مدحت إسلام
٧٢ – الأدب الفرنسى فى عصر النهضة	د . رجاء ياقوت
٧٣ – الحرب ضد التلوث	رجب سعد السيد
٧٤ – القصة والمجتمع	يوسف الشارونى
٧٥ – المنتظرون الثلاثة	عبد الله الكبير
٧٥م- محمود أبو الوفا	فتحى سعيد
٧٦ – العسكرية الإسلامية	لواء / جمال الدين محفوظ
٧٧ – النفايات الذرية	د . محمد عبد الله بيومى
٧٨ – الإعلام والنقد الفنى	د . أحمد المغازى
٧٩ – المسرح الأمريكى	د . عبد العزيز حمودة
٨٠ – زحف الصحراء	د . محمد فتحى عوض الله
٨١ – مشاكل الطفل النفسية	د . كلير فهيم
٨٢ – الأدب التركى	د . حسين مجيب المصرى
٨٣ – مضادات الحيوية	د . محمد صادق صبور
٨٤ – الرواية الإنجليزية	د . إنجيل بطرس
٨٥ – الضحك فلسفة وفن	جلال العشرى
٨٦ – الاستثمارات الأجنبية	د . عبد الواحد الفار
٨٧ – لغتنا الجميلة	فاروق شوشة
٨٨ – الحرب عند العرب	د . عبد الرحمن زكى

٨٩ – لئلا نحترف البكاء	نشأت التغلبى
٩٠ – الإسلام وروح العصر	د . حسين فوزى النجار
٩١ – التراث الشعبى	د . عبد الحميد يونس
٩٢ – علم المنطق	د . محمد مهران
٩٣ – القلب وتصلب الشرايين	د . رجب عبد السلام
٩٤ – فن الخزف	سعد الخادم
٩٥ – الإعجاز القرآنى	د . محمد أحمد العزب
٩٦ – سفراء النبى	د . مختار الوكيل
٩٧ – ساعة مع القرآن العظيم	د . عبد العظيم المطعنى
٩٨ – لغة الصحافة المعاصرة	د . محمد حسن عبد العزيز
٩٩ – الكيمياء الصناعية	د . محمد الحلوجى
١٠٠– الدراما الأفريقية	د . على شلش
١٠١– وكالات الأنباء	شفيق عبد اللطيف
١٠٢– الحدوتة والحكاية الشعبية	محمد فهمى عبد اللطيف
١٠٣– ألف باء السياسية	د . أحمد حمدى محمود
١٠٤– تطور الشعر فى الغناء العربى	غطاس عبد الملك
١٠٥– الحرب الإلكترونية	عبده مباشر
١٠٦– البطل فى القصة المصرية	حسن محسب
١٠٧ – عجائب الحشرات	د . محمد طلعت الأبراشى
١٠٨ – الإذاعة خارج الحدود	أنور شتا
١٠٨م– مصر الخضراء	د . فاروق الباز
١٠٩ – القانون الطبيعى وقواعد العدالة	عبد السميع الهراوى
١١٠ – فن التصوير السينمائى	أحمد الحضرى
١١١ – الطـــاقة	د . محمد فتحى عوض الله

١١٢ – الفن والمرأة	شريفة فتحى
١١٣ – نظام الحكم فى الإسلام	د . مصطفى كمال وصفى
١١٤ – رحلتى مع الرواية	فتحى أبو الفضل
١١٥ – التطـــور	د . منى فريد
١١٦ – الأدب والمواطن	عباس خضر
١١٧ – آفاق جديدة فى التعليم	د . طلعت حسن
١١٨ – الفن القبطى	د . باهور لبيب
١١٩ – اجتماعيات التنمية	د . محمود الكردى
١٢٠ – المسرح الشامل	أحمد زكى
١٢١ – رسائل إخوان الصفا	د . على السكرى
١٢٢ – الرمزية الصوفية فى القرآن	د . سيد عبد التواب
١٢٣ – الحب فى الشعر الفارسى	د . عفاف زيدان
١٢٤ – الإنسان والعـــلم	د . عبد العزيز أمين
١٢٥ – نظرات فى القصة القصيرة	حسين القبانى
١٢٦ – الفراعنة أساطين الطب	محمد عبد الحميد بسيونى
١٢٧ – كهـف الحكيم	فتحى العشرى

الكتاب القادم

للألبان فلسفة وأسرار

د. مصطفى الديوانى

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٤٩٧٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٥٥ - ٢

١ / ٧٩ / ١٩٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)